# أتلاف الكتب في الحضارة العربية الإسلامية / دراسة تاريخية في أسبابها في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م)

د. نوفل محمد نوري
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة الموصل

| القبول | الاستلام |
|---|---|
| 2010 / 09 / 14 | 2010 / 05 / 31 |

## Abstract

A study investigates phenomenon of books consuming which was prevalent in the Arabic Islamic civilization as it was in other civilization are well. The researcher tries to detect the motivations which seemed to differ in their aims but they the fact a great deal of the nations heritage had been lost. When the books written increased in number in the Ahha cide age, papers manufacturing flourished and the career of copying which combined between living gaining and moral gaining appeared. At the same period, the cultural interaction was encouraged by the Abba side Caliphs who adopted the idea of interaction with the other and benefiting from other nations heritage. Although this issue meant a factor of enriching the Arab Islamic culture, to others it meant surpassing the basics of his culture and beliefs.

The written works increased with the development of the cultural life and the appearance of discussion and dispute among the educated people in the Abba side. Time in several aspects. The resulting different views were reflected in their books which sometimes became the victim of this cultural diversity.

The book became the power factor for the author and for those who chare him his ideas. In return, the content of the books became a problem to those who disagree with him, beside some other reasons behind book consuming like was and the consequences which lead to consuming the nations heritage. Besides, the natural catastrophes such as fires or floods led to books consuming in their stores. And there were other reasons behind books consuming together with the knowledge they contained whereby books keeps the experiments of scholars and thinkers.

## الخلاصة

رصدت الدراسة ظاهرة شاعت في الحضارة العربية الإسلامية كما شاعت في حضارات الأمم الأخرى وهي إتلاف الكتب، اذ حاول الباحث الوقوف على الدوافع التي بدت متنوعة ومتباينة في أهدافها الا انها اشتركت في ضياع كم هائل من تراث الأمة، فمنذ ان كثرت المؤلفات ولاسيما في العصر العباسي، بعد انتعاش صناعة الورق من جهة وظهور مهنة النسخ التي باتت مهنة جمعت بين الكسب المادي والمعنوي من جهة أخرى، في وقت بدا التفاعل الثقافي بين الأمم يشق طريقه بدعم من الخلافة العباسية التي تبنت فكرة التفاعل مع الآخر والإفادة من تراث الأمم الأخرى، وهذا الأمر بقدر ما كان يعني للبعض عامل إثراء للثقافة العربية الإسلامية بقدر ما كان يعني للبعض الآخر تجاوزا على ثوابت ثقافته الفكرية والعقدية، وازدادت المؤلفات مع تطور الحياة الثقافية، ومع ظهور النقاش والجدل بين النخب المثقفة في العصر العباسي، في محاور عدة انعكس ذلك معبرا كل عن وجهة نظره من خلال الكتاب الذي بات أحياناً ضحية ذلك التنوع والتباين الثقافي، فأصبح الكتاب عنصر قوة للمؤلف ومن يشاركه الآراء، وفي المقابل شكلت مادة الكتاب مشكلة لمن يرى خلاف ذلك - ناهيك عن دوافع أخرى كانت وراء إتلاف الكتب، كالحروب وما يتبع ذلك من كوارث تحل على البلاد من جراء إتلاف لتراثها والتي يأتي في مقدمتها الكتاب، وكذلك الآمر بالنسبة لما يصيبها من كوارث طبيعية او حرائق تصيبها او الفيضانات التي تتعرض لها أماكن خزن الكتب، وغيرها من الأسباب التي كان وراء إتلاف الكتب مع ما تحويه من علوم ومعارف حفظ الكتاب من خلالها ذاكرة وتجارب العلماء والمفكرين والتي لا تقدر بثمن، اذ تفنى ذاكرة العقول ويبقى أثرها خالدا في ما تحويه مؤلفات أصحابها.

**تمهيد:**

حفظت الكتابة بكل أشكالها وصورها للإنسانية أعمالاً وانجازات معرفية مختلفة والتي عكست رقي الأمم، لما حوته وما دونته أقلامها وقراطيسها، فنقلت التجارب والخبرات الإنسانية بمختلف أشكالها وصورها، ولولا الألواح والمنحوتات والكتب، لضاعت المعرفة البشرية بمختلف مستوياتها. وإذا كانت العلوم تمثل مقياسا لتطور الخبرات وتنوعها فأن أساس ذلك التطور يأتي من خلال الكتاب، اذ ان العقول تفنى والذاكرة تمحى مع تقدم العمر وفناء الإنسان ويبقى الكتاب حلقة وصل بين تطور الخبرات البشرية وتواصلها

وعلى الرغم من كثرة المصنفات اليوم في مكتباتنا والتي اتسعت لتشمل جميع العلوم والمعارف، الا ان الكثير منها قد ضاع واندثر لأسباب عديدة شهدتها مكتبتنا العربية الإسلامية طيلة ستة قرون من الزمن، والتي تباينت دوافعها، وبقدر ما أنتجته المعرفة البشرية من نتاج

علمي وفكري مدون، فقد ضاع الكثير منها بسبب تلف تلك المدونات لأسباب تتعلق بكـوارث كالفيضانات او الحرائق([1])، او لأسباب أخرى تتعلق بإتلاف أصحابها لها لأسباب عدة، فضلا عن اثر الحروب والغزوات، يضاف لها تلك التجاذبات الفكرية والتباين في الآراء والتي كانت وراء تلف العديد منها.

ان البحث في ظاهرة تلف الكتب تعني بالضرورة الوقوف على ذلك الكـم الـضائع او المفقود من تراث أي امة، وهذا الأمر قد ألزم الباحث التأني كثيرا للوقوف إزاء تلك الـدوافع ومعرفة وتصنيف أشكال ذلك التلف او العوامل التي كانت تقف وراء فقدانها.

لقد تنوعت الدوافع بين ما عد سببه ديني او، اجتماعي، وآخـر سياسـي او ذاتـي او لأسباب عرضية أخرى لا دخل لأحد فيها، وسنحاول الوقوف على كل واحد منهما على حدة. ولاسيما بعد ان ازدهرت صناعة الورق وازدهرت حركة التأليف والترجمة عن العلوم فضلاً عن تلاقح الأفكار بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى في العصر العباسي، فعلـى الرغم من شدة عناية المسلمين بالعلم وتدوينه، فأنه وفي عصر الرسالة والراشدين لـم نـشهد حركة كتابة او تدوين، مع كتابة كتاب ا  عز وجل ولاسيما كتابة الحديث النبـوي الـشريف لأسباب تتعلق بخشية ان يختلط ما يدون مع كتاب ا  تعالى استجابة لامـره عليـه الـصلاة والسلام ((لاتكتبوا عني شيئا سوى القرأن ومن كتب عني شيئا  سوى القـرأن فليمحـه) ([2])، وروي عن ابن ابي الزناد قال، قال عروة {عروة بن الزبير}: (كنا نقول لا نتخذ كتابـا مـع كتاب ا  فمحوت كتبي فوا  لوددت أن كتبي عندي وان كتاب ا  قد استمرت مريرته، وقال معمر عن هشام {هشام بن عروة بن الزبير} أن اباه كان حرق كتبا فيها فقه ثم قال: لـوددت اني كنت فديتها بأهلي ومالي لكي لا يختلط ما ينزل من الوحي مع ما هو حديث شريف) ([3]) واكتفى المسلمون الأوائل بتداول العلوم من فقه وحديث وتفسير مشافهة مع ما عـرف عـن ملكتهم في الحفظ، ثم جاء العصر الأموي ليشهد عصر الكتابات التاريخية الأولى بعد ان بـدا التدوين للحديث النبوي الشريف، فضلاً عن الكتابات التي كانت عنيت بمسألة الأنساب. الا ان مسألة التدوين للعلوم نشطت في العصر العباسي ومع تطور صناعة الـورق والنـسخ، ازداد تداول الكتب كما تزامن معها تلف لعدد منها وفيما يلي الوقوف على دوافع ذلك التلف للكتب:

**أولاً : أتلاف الكتب من قبل أصحابها لأسباب ذاتية وموضوعية**

أسهمت رؤية عدد من العلماء في عدم قناعتهم بإبقاء قسم من مؤلفاتهم، امـا لأسـباب تتعلق بالزهد، او ندم أصحابها عما وردفيها من كلام، وأخرى تتعلق بضعف إسناد الروايـات التي فيها وهذا ما حدا ببعض العلماء بالعزوف عن إعادة كتابتها  بعد تعرضت لاتلاف، كمـا حدث مع كل من ابي عمرو بن العلاء (ت157هـ ـ/773م) وسـفيان بـن سـعيد الثـوري

(ت:161هـ/778م) وداؤد بن نصير الطائي (ت:162هـ/779م) واحمد بن ابـي الحـواري (ت: 246هـ/860م) وغيرهم.

اذ يروى عن ابي عمرو بن العلاء انه كان اعلم الناس بالقرأن والعربية وكان قد تتلمـذ على يد سعيد بن جبير وسمع الحديث عن انس بن مالك وشهد له علماء عصره بـالعلم فـي الحديث والقراءات، وكانت دفاتره تملأ جدران بيته إلى السقف ثم تنسك واحرقها([4]) اما سفيان الثوري فقد روي عنه انه قد أوصى بدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها عن الضعفاء فـي الحديث، ويروى انه مزق ألف جزء مما كتبه في الحديث،وطيرها في الريح وقال (ليت يـدي قطعت من ها هنا ولم أكتب حرفاً) ([5])، اما داؤد بن نصير الطائي الامام الفقيـه وهـو احـد علماء الكوفة وزهادها، اذ يروى في سبب اتلاف كتبه: (انه لا يجيز لأحـد روايتهـا سـواء بأجازة او وجادة بل يرى انه اذا رواها احد بالوجادة يضعف فرأواً ان مفسدة اتلافها اخـف من مفسدة التضعيف بسببهم)([6])، كما يروى عن احمد بن ابي الحواري انه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوما خاطر، فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثـم قـال (نعم الدليل كنت لي على ربي ولكن لما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محـال) ([7]) فقـام بغسل كتبه لمحو ما فيها.([8]) ويسهب ياقوت في وصف من احرق واتلف كتبه في رواية ينقلها عن ابي حيان التوحيدي بقوله: (وهذا يوسف بن أسباط: حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه) ([9]). وهذا عبد الرحمن بن احمد أبو سـليمان الداراني (ت:215هـ/830م) الذي جمع كتبه في تنور وسجرها بالنـار ثـم قـال (وا مـا أحرقتك حتى كدت أحترق بك).([10]).

الا ان عدداً آخر من العلماء كانوا يرون في فعل هؤلاء على انه خاطيء وان في أبقاها والحفاظ على ما فيها خير من اتلافها ومن بينهم ابن الجوزي (ت:597هـ/1201م)([11]) الذي يرى ان تلك الأفعال قد ضيعت تصانيف مهمة كثيرة اذ يقول: (ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعات من السادات انهم دفنوا كتبهم، فقلت له: ما وجه هذا، فقال: أحسن ما نقول ان نسكت {يشير إلى ان هذا جهل من فاعله}، وتأولت انا لهم فقلت: لعل ما دفنوا من كتـبهم، فيها شيء من الرأي، فما رأوا ان يعمل الناس به، ولقد روينا في الحديث عن احمد بن ابـي الحواري: انه اخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال نعم الدليل كنت، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول – اذا احسنا به الظن) ([12]) ثم يضيف ابن الجوزي في معرض رده على من يقوم باتلاف كتبه قائلاً: (فأما اذا كانت علوما صحيحة، كان هذا من افحش الإضاعة، وانا وان تأولت لهم هذا فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم، لانا قد روينا عن سفيان الثـوري انه قد أوصى بدفن كتبه وكان ندم عن أشياء كتبها عن قوم وقال: حملني شهوة الحديث، وهذا

لانه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين، فكانه لما عسر عليه التمييز أوصـى بـدفن الكـل وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه جاز ان يدفن الكتب التي فيها ذلك، فهذا وجـه التاويل للعلماء، فأما المتزهدون الذين رأو صورة فعل العلماء ودفنوا كتبا صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد، فأنه جهل منهم لانهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم مع الاقدام على تضييع ما لا يحل تضيعه) ([13])

ثم يورد ابن الجوزي شواهد أخرى اذ يقول: (ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم يوسف بن اسباط ثم لم يصبر على التحديث فخلط،فعد في الضعفاء) ([14]) وحين سئل يوسـف بن اسباط عما فعله بكتبه قال (جئت الى الجزيرة فلما نضب الماء دفنتها حتـى جـاء المـاء عليها، فذهبت، قلت ماحملك على ذلك، قال ان يكون الهم هما واحدا) ([15])، ثم يزداد نقد ابـن الجوزي حين يضيف شيوخه من العلماء التي ترفض هذا الفعل، فيقول (وفي الناس من غلب عليه قصر الامل وذكر الاخرة حتى دفن كتب العلم، وهذا الفعل عندي من أعظم الخطـأ وان كان منقولا عن جماعة من الكبار، ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال. اخطأوا كلهم، وقـد تأولت لبعضهم بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء يميزونها، كما روي عن سفيان الثوري في دفن كتبه او كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا ان يؤخذ عنهم، فكان من جـنس تحريـق عثمان رضي ا عنه للمصاحف، لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجتمع على غيـره وهـذا التأويل يصح في حق علمائهم، فأما غسل احمد بن ابي الحواري كتبه وابن اسـباط فتفـريط محض) ([16])، في الوقت الذي نجد ان حاجي خليفة كان يـدافع عـن وجهـة نظـر سـفيان والحواري ويؤول لهم ذلك بقوله (وجوابه بالنظر الى فن الحديث وهو لا يقع جوابا عن إعدام ابن ابي الحواري وأمثاله لان الأول: بسبب ضعف الاسناد والثاني بسبب الزهد والتبتل إلـى ا –سبحانه وتعالى –ولعل الجواب عن اعدامهم انه ان اخرجه عن ملكه بالهبة والبيع ونحوه لاتنحسم مادة العلاقة القلبية بالكلية ولا يأمن من ان يخطر بباله الرجوع إليـه ويخـتلج فـي صدره النظر والمطالعة في وقت ما وذلك مشغلة بما سوى ا –سبحانه وتعالى) ([17])

كما ان ندم وتوبة أصحاب عدد من المؤلفات واتلافها بعد تراجعهم عن مواقف سـابقة كان شمل الشعراء أيضاً وهذا ما حدا بإبراهيم بن الخليفة المهدي،حين مرض مرضـه الـذي اشرف فيه على الموت، فجعل يتذكر شغفه بالغناء وما سلف له فيه ويتندم عليه ([18])، فقال له بعض من حضر (فتب واحرق دفاتر الغناء فحرك رأسه ساعة ثم قال يامجانين فهبني احرقت دفاتر الغناء كلها ااقتلها وهي تحفظ كل شيء في دفاتر الغناء، ريق ايـش اعمـل بهـا) ([19]) وريق هي مغنية مشهورة تحفظ اغاني إبراهيم بن المهدي، وكذلك فقد ذكر في ترجمة محمـد بن علي بن المطلب (ت:478هـ/1085م) انه قال شعرا كثير الهجاء ثم تراجع عـن ذلـك، فأكثر الصوم والصلاة والصدقة، وكان قد روى الحديث عن ابن شـاذان وغيرهمـا، فغـسل مسودات شعره واحرق بعضها بالنار ([20]).

وفي إشارة تاريخية الى ترجمة لشجاع بن فارس الذهلي (ت:507هـ/1113م) الحافظ والناسخ للحديث والفقه والذي كان مصدرا في معرفة الشيوخ، واحوالهم بعد الخطيب البغدادي وكان قد ذيل على تاريخ الخطيب، الا انه تراجع وغسل مصنفه هذا قبل موته ([21]) وكان المبارك بن المبارك ابو طالب الكرخي (ت:585هـ/1189م) الفقيه الشافعي والذي وصف على انه اوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال بن البواب الا انه كان ضنينا بخطه جدا، فلذلك قل وجوده، وكان اذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستا ويغسله، فأما اذا استفتي فأنه كان يكسر قلمه ويجهد في تغيير قلمه ([22]). اما علي بن الحسن المعروف بالحلي النحوي (ت:601هـ/1204م) والذي سأل كان ياقوت الحموي قد سأله كيف انه لم يصنف مقامة يدحض بها مقامات الحريري فقال له يا بني (اعلم ان الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل. عملت مقامات مرتين فلم ترضني فغسلتها، وما اعلم ان الله خلقني الا لأظهر ابن الحريري)([23])

ويروى ان البرهان الضرير الواسطي المعروف بالوجيه (ت:612هـ/ 1215م) ذكر خبر كتابا لابي العلاء المعري كان قد أتلفه خازن الكتب ابو المعالي احمد بن هبة الله بعد ان ذم كتابه وترد الرواية عند ياقوت بقوله (حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ ابو المعالي احمد بن هبة الله، فجرى حديث المعري،فذمه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه واي شيء هذا الكتاب؟ قال كان كتاب نقض القرأن، فقال له أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه واستشاط ابن هبة الله وقال له مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال نعم لا يخلوا ان يكون هذا الكتاب مثل القرأن او خير منه او دونه، فأن كان مثله او خيرا منه، وحاش لله ان يكون ذلك، فلا يجب ان يفرط في مثله، وان كان دونه، وذلك ما لاشك فيه، فتركه معجزة للقرأن فلا يجب التفريط فيه، فأستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت)([24]).

**ثانياً : تلفها لأسباب تتعلق باعتقاد مؤلفها بعدم معرفة قيمتها من بعده**

دوافع أخرى كانت وراء تلف الكتب منها عدم قناعة مؤلفها بجدوى ابقائها بعد وفاته فيرى في إتلافها او غسلها او حرقها او دفنها هو الأفضل لها، ومن امثلة ذلك ما فعله ابو حيان التوحيدي (ت: 400هـ/1010م)بكتبه، اذ كان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته ([25])، على الرغم من معارضة معاصريه لهذا العمل ومنهم صاحبه القاضي ابو سهل علي بن محمد الذي كتب الى ابي حيان يقنعه بالعدول عن هذا الفعل وتقبيح تلك الفعلة التي اعتبرها شنيعة، الا ان ابا حيان اعتذر له عن عدم رجوعه عن ذلك القرار بقوله (حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول

جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعاً مما سود وجه عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، وأدام ا نعمته عندك، وجعلني على الحالات كلها فداك. وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح بي إليه، وشكرت ا تعالى على النعمة به علي، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إلي، والصبابة نحوي ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جل وعز: "كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون"، وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: "كل من عليها فان". وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلباً بيد الليل والنهار، معروضاً على أحداث الدهر وتعاود الأيام) ([26])، ثم يبرر ابا حيان عمله ذلك على انه استخار ا عز وجل في ذلك بقوله (حتى استخرت ا عز وجل فيه أياماً وليالي، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم، وأجد فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وتريع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني)([27]) ثم يحاول التوحيدي ان ينتقد نفسه بعدم العمل بما تعلمه بقوله (وتعرف صنع ا تعالى في ثنيه لي: إن العلم - خاطك ا - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ با من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً | وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار | ثم اعلم علمك ا الخير أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً) ([28]) ثم يضيف ان العلم الذي تعلمه ودونه لم يكن الغرض منه وجه ا بل لاجل شهرة وجاه ودنيا بقوله (على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله، - ولا شك في حسن ما اختاره ا لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمري -، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علي لا لي) ([29])، ثم يرى ان السبب الاخر الذي شجعه على ذلك انه لم يكن له وارث يحمل علمه من بعده لا ابن ولا صديق ولا غيره فأعتقد ان علمه سيقع بيد خصومه قائلا (ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها) ([30])، وان خشيته من خصومه وهم لا يتوقفون في حياته عن نقده فكيف الحال بعد مماته قائلاً (فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن، ونقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف

أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك) ([31]) وبعد ذكره لكل هذه الأسباب فأنه يتعجب من لوم صاحبه له وهو يعلم بحال ذلك الزمان قائلا له (وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته بما قدمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته إما هرباً من التطويل، وإما خوفاً من القال والقيل. وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة؟ أو رجاء لحال جديدة، ألست زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كل يوم وليلة... وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر:

تفوقت درات الصبا في ظلاله... إلى أن أتاني بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدي وتمامه يضيق عنه هذا المكان، وا يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقربهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلى نعيهم، واستدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟) ([32]) ثم ينيب نادما الى ا عن مقولة قالها او كتبها في سنه الذي تجاوز التسعين ليقول (أسأل ا تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب. وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويعشى إلى نارهم) ([33])، ويذكر منهم داؤود الطائي وابو سعيد السيرافي وسفيان الثوري وغيرهم من الزهاد الذين اعتبرهم قدوته في هذا الفعل. ([34]). والنص فيه أكثر من تأويل لنية ابي حيان التوحيدي في سبب حرق كتبه منها تراجعه عن بعضها، والآخر كان بسبب انها لم يكن الغرض منها وجه ا عز وجل، والثالث كان بسبب عدم جدوى إبقائها لخصومه الذين ينالون منه حيا او ميتا، والرابع سبب يتعلق بعدم فهم الآخرين محتواها والقصد منها، والخامس كان يتعلق بقناعاته بأن الحياة ماضية ولا تستحق ذلك العناء والإنسان مشغول عن ا عز وجل ([35]).

**ثالثاً : تلفها لأسباب تتعلق بالحداد على وفاة صاحبها.**

ومن الأسباب الأخرى التي أسهمت في ضياع كتبا ومؤلفات هامة على الرغم من ندرة الإشارات التاريخية إلى هذا النوع من الأسباب هو تلفها لأسباب تتعلق بالحداد على وفاة

صاحبها، من ذلك ما نقله صاحب كتاب تتمة صوان الحكمة ([36]) عن ان زين الدين عمر بـن سهلان الساوي (ت:450هـ/1058م) القاضي الامام والفيلسوف الذي كان قد تنقل في طلـب العلم وكان قد استقر في نيسابور، وكان يأكل من كسب يده ويرتفق بالنسخ ويبيع نسخة مـن كتاب الشفاء بخطه بمائة دينار كما ذكر من ترجم له، وللقاضي عمر تصانيف كثيـرة منهـا كتاب البصائر النصيرية في المنطق، وآخر في الحساب ورسائل متفرقة وله تـصانيف آخـر أحرقت مع بيت كتبه بساوة بعد وفاته حدادا عليه ([37]).

**رابعاً : تلاف الكتب لأسباب تتعلق بالتباين الثقافي والفكري.**

لقد كانت الخلافات الفكرية قديمة قدم الحضارات الإنسانية وغالبا ما كانت الكتب التـي تقع في يدي الخصم فيقوم بأتلافها اذ احرق الرومان عددا كبيرا من كتب اليونان،وكان التنوع الفكري سببا اخر يقف وراء اتلاف الكتب، ومن بين أكثر تلك الخلافات تلك التي كانت تدور في دائرة النقاش الدائم بين النقل والعقل،وحدود العقل،وما يدور حولها من طروحات خـاض غمارها كل من المعتزلة، والاشاعرة، وأصحاب الحديث([38]) فضلاً عـن خلافـات أخـرى توزعت بين أفكار أصحاب الفكر الصوفي، و الفلاسفة، والذي دخلوا في مناظرات مع مختلف التيارات على الساحة الثقافية والتي بدأت مع نهاية العصر الاموي وبدايات العصر العباسـي والتي اتخذت من الكتاب أجدى مجالاتها للتعبير عن أرائها مما ساهم ذلك الامر في ان يكـون الكتاب هو ساحة الصراع الثقافي في كثير من الأحيان، والذي انعكس اثره سلبا على الكتاب وبدأ ذلك التباين الثقافي يأخذ أشكالا متنوعة تتطور مع تطور الجدال والمناظرة بعد ان اخـذ المنطق والقياس العقلي والنقلي يتطور مع تطور تلك الطروحات، ولاسيما منـذ ان شـرعت الخلافة العباسية في عصر المأمون بترجمة علوم اليونان ([39]) وظهور الاتجاه العقلـي الـذي نشط لدى المعتزلة، وكانت الخلافة العباسية وطيلة حكم ثلاثة خلفاء قد تبنـت وجهـة نظـر المعتزلة لسبب او لاخر مما انعكس ذلك الامر سلبا على خصوم المعتزلـة مـن حنابلـة او اشاعرة، كما كانت كتب المتصوفه وطروحاتهم التي بدت غريبة من قبل معارضـيهم فـي الرؤية، قد دخلت حلبة المنافسة في مجال اتلاف واحراق مصنفاتهم، اذ اعتبـرت طروحـات الحلاج وابن عربي، وابن الفارض والغزالي والسهروردي في الكشف والفـيض والاشـراق ـبوصفها إحدى صور المعرفة التي تقدم الحقيقة كما يقدمها الوحي ـ ـكما يـرون ـ مـع اختلاف منهج ورؤى كل واحد منهم،ـ فيها من الشطحات العقدية المخالفـة لاصـل الـدين بأعتبار أصل المعرفة مصدرها الوحي دون سواه عند عامـة المـسلمين وتعرضـت كتـبهم ومصنفاتهم بين الحين والآخر الى الإتلاف لخروجها كما يرى خصومهم عن محتوى وجوهر الوحي والنقل كما فعل غيرهم من الفلاسفة.

وهكذا لاقت كتب الفلسفة، وكتب الفرق كاخوان الصفا وغيرها من الكتب ذات الطابع العقلي البحت او ذلك التاملي، الذي يتيح للعقل التجاوز على الثوابت العقدية والفكرية، كلها وغيرها من الأسباب جعلت الحوار الذي بدا على شكل جدل ومناظرة مباشرة ثم انتقل إلى رد كلامي عن طريق كتابة مؤلف ثم ظهور كتب الرد على هذا الكتاب او ذاك، ولاسيما اذا ما تباعدت المسافات بين العلماء كما حصل بين الغزالي وابن رشد([40])، وهكذا قدمت المؤلفات قرابين بسبب ذلك التباين والصراع في وجهات النظر على الساحة الثقافية، واذا ما كان القرنان الثالث والرابع الهجريين بزخران بالتنوع الثقافي الذي اتخذ من المناظرة والجدل وكثرة التصنيفات فأن القرنين اللاحقين شهدا احراقا وغسلا ودفنا لتلك الكتب ولذلك النتاج بمختلف مستوياته([41])، وهذا الامر ذاته انعكس سلبا على العلاقة الثقافية بين المشرق العربي الإسلامي من جهة وبي المغرب والأندلس من جهة أخرى، حين بدأت الاختلافات بين المشرق العربي الإسلامي من جهة والذي كان قد سمح للتنوع الفكري في فترات مختلفة، وبين المغرب والأندلس المالكيتين من جهة ثانية اذ ان مجال ترويج مسائل العقل والمنطق بهما كان امر ا محدود حتى مجيء ابو الوليد الباجي، الذي استطاع اقحام المنطق بعد جدال طويل خاض غماره مع علماء الأندلس كأبن حزم وغيره، اما ابن طفيل فقد اتخذ من الإشارات والتضمين في طروحاته مجالا لعرض العقل، وانتهاء بأبن رشد الذي عاش بين رضا السلطان عليه ثم سخطا ناله منه دفع كتبه ثمنا لتلك الخصومة مع المنصور في قرطبة فكان صراعا بين ما هو ثابت في المدرسة المالكية وبين ما هو عقلي تأملي كالذي عند المتصوفة، او ارسطي كالذي عند ابن رشد ثم بدا هنالك صراع اخر بين ما هو فلسفي محض وبين ما هو صوفي مشرقي وخير دليل ما كان من خلاف في مسائل عديدة بين ابن رشد والغزالي ولاسيما في أصل المعرفة وجوهرها أهو عقلي محض ام اشراقي والهامي. فضلاً عن تقاطعات أخرى عكست الخلاف بين الاشاعرة المتمثلة بالغزالي، والفلاسفة الذين خاضوا غمار الفلسفة الارسطية كأبن رشد.

لقد كان موت الخليفة الاموي الحكم المستنصر با سنة 366 هـ/977م ومجيء ابن ابي عامر الذي تولى مقاليد الحكم في الاندلس، قد اثر في توجهات الخلافة الإدارية المختلفة وكان من بين ذلك التأثير على وجهة سلفه الثقافية محاولة في كسب ود العامة من الناس والتي كانت تمقت كل ما يتعلق بالعقل او الفلسفة او علوم الأوائل، بحكم ثقافتهم المالكية والنصية الظاهرية التي لا تقبل التأويل والتي لا تسمح بقراءة هذه العلوم، والذي كان قد امر بإخراج كتب الفلسفة والمنطق وعلم النجوم وامر باحراق بعضها وطرح الآخر منها في الابار ودفن البقية منها تحت التراب والحجارة ([42])، فضلاً عن محاولته تقبيح مذهب الخليفة الحكم المستنصر الخليفة الراحل، فنهبت مكتبة الخليفة وخزانته الكبرى والتي حوت نفائس الكتب،

بعد ان كانت قد نهبت من قبل عوام الناس، والذين لم يعرفوا قيمتها فضاعت بعد ان تستر الناس بما كان عندهم من كتب العلوم المحجورة([43]). اما ابو الوليد الباجي الاندلسي (ت:474هـ/1081م) والذي كان قد قدم الى المشرق العربي الإسلامي ليدرس على تلاميذ الباقلاني علم الكلام، ثم عودته الى الأندلس ليتفرد بين ابناء عصره بالمنطق في وقت كان محضورا تدريس علم الكلام فيها، وكان قد خاض غمار الجدال والمناظرة مع علماء عصره كأبن حزم الاندلسي([44])، وغيره من معاصريه، وكان ابو الوليد الباجي قد اثني عليه من قبل علماء الكلام لتميزه بهحتى وصفه علماء آخرين كأبي جعفر السمناني وهو احد علماء الموصل المرموقين والذي وصف علم ابو الوليد على انه تجاوز علم ابي بكر الباقلاني بقوله له: (استفتحت بلدا ما استفتح القاضي ابو بكر مثله) ([45])، الا ان مناظرة الباجي لابن حزم في ميورقة كانت سببا وراء إحراق كتبه([46]).

وفي القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي شهدت بغداد تلف الاف الكتب بين حرق او غسل، من بين ذلك ما حصل سنة 588هـ/1192م حين أحرقت كتب عبد السلام بن عبد الوهاب (ت:611هـ/1214م)، والذي كان مذموم السيرة، اذ كان منجما يصنف في الفلسفة كما يذكره من ترجم له ([47]) وكما يرى خصومه، اذ وجد في مكتبته رسائل لاخوان الصفا وكتبا في عبادة النجوم ([48]) فأحرقت كتبه بأمر من الوزير ابن يونس والقي القبض عليه لفجوره، ([49])، بعد ان سلم مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني والتي كان يرأسها عبد السلام بن عبد الوهاب، الى ابن الجوزي، اذ وجد ابن يونس تلك الكتب، فأمر بإحضار العلماء والفقهاء ومعهم ابن الجوزي وتجمعوا في مسجد مجاور لجامع الخليفة العباسي يوم الجمعة،فجلس قاضي القضاة وعدد من العلماء على سطح المسجد واضرموا تحت حائط المسجد نارا عظيمة وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم، والكتب على سطح المسجد، وبعد ان اشهد ابن يونس ان تلك الكتب والخاصة بالنجوم مكتوبة بخط يد عبد السلام امر برميها على النار، فقام ابو بكر بن المرستانية وهو احد العلماء الحاضرين بقراءة كتابا امام الناس والتي فيها وصف ومخاطبة للنجوم ويقول (العنوا من كتبها ومن يعتقدها وعبد السلام حاضر فيضج العوام باللعن) ([50])، الا ان الأيام دارت على الوزير ابن يونس والقي القبض عليه للوشايات التي سعى إليها عبد السلام ضد ابن يونس وابن الجوزي معا إلى الوزير الجديد ابن القصاب، والذي قام بدوره بحرق كتب ابن الجوزي نكاية بما فعل الوزير ابن يونس وابن الجوزي ([51])، ولم يكتف الوزير ابن القصاب بأحراق كتب ابن الجوزي بل قام بنفيه إلى واسط لاتهامه بتهم ووشايات من خصمه. ([52])، وان كانت خسارة الكتب هنا تمثلت بكتب ابن الجوزي اكثر من كتب عبد السلام التي كانت تخلوا من فائدة تذكر الا ان فعل الوزير وابن الجوزي قد كان سببا في إتلاف كتبه.

وفي القرن ذاته شهد المغرب العربي الإسلامي والأندلس صورا أخرى لإتلاف الكتب وللأسباب ذاتها اذ ظلت الأندلس مكانا غير امن للعلوم العقلية واذا ما انتعشت المؤلفات الفلسفية بين الفينة والأخرى فأن الغالب على هذه البلاد التشدد تجاه ما هو عقلي، او ما هو كلامي تأملي عقلي او كلامي صوفي كالذي جاء به الغزالي في كتابه المشهور احياء علوم الدين([53])، اذ امر علي بن يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين بحرق كتب الفلسفة، والكلام، وكان يتوعد ويأمر باحراق كتب المشارقة من كتب الفلسفة وكتب الغزالي معا وتوعد بالقتل لمن يخفيها ([54])، وظلت كتب الغزالي مشكلة في المغرب والأندلس فترة من الزمن، فهذا الامام محمد بن علي المازني الصقلي والذي علق على كتاب الأحياء بقوله (وقد تكررت مكاتبتكم في استعلام مذهبنا في الكتاب المترجم باحياء علوم الدين ذكرتم ان اراء الناس فيه قد اختلفت، فطائفة انتصرت وتعقبت لاشهاره وطائفة حذرت منه ونفرت، وطائفة لكتبه احرقت، وكاتبني اهل المشرق أيضاً يسألونني، ولم يتقدم راء هذا الكتاب سوى نبذ منه، فأن نفس ا في العمر مددت فيه الانفاس، وازلت عن القلوب الالتباس اعلموا ان هذا رايت تلامذته فكل منهم حكى لي نوعا من حاله ما قام مقام العيان، فأنا اقتصر على ذكر حاله وحال كتابه، وذكر جمل من مذاهب الموحدين المتصوفة وأصحاب الإشارات الفلاسفة فأن كتابه متردد بين هذه الطرائق) ([55])، الا ان المازني هذا قد اطرى على الغزالي في الفقه بقوله: (وهو بالفقه اعرف، منه بالأصول، واما علم الكلام الذي هو أصول الدين فأنه صنف فيه، وليس بالمتبحر فيها، ولقد فطنت لعدم استبحاره فيها، وذلك انه قرأ علوم الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول، فأكسبته الفلسفة جرأة على المعاني وتسهلا للهجوم على الحقائق، لان الفلاسفة تمر مع خواطرها، لا يزعها شرع، وعرفني صاحب له انه كان له عكوف على رسائل اخوان الصفا وهي إحدى وخمسون رسالة ألفها من قد خاض في علم الشرع والنقل، وفي الحكمة، فمزج بين العلمين، وقد كان رجل يعرف بأبن سينا ملأ الدنيا تصانيف ادته قوته في الفلسفة إلى ان حاول رد أصول العقائد إلى علم الفلسفه، وتلطف جهده، حتى تم له ما لم يتم لغيره، وقد رأيت جملا من دواوينه، ووجدت ابا حامد {الغزالي} يعول عليه في أكثر ما يشير إليه من علوم الفلسفة) ([56]) ثم يضيف الذهبي قائلاً: (واما مذاهب الصوفية، فلا ادري على من عول فيها، لكني رأيت فيما علق بعض أصحابه انه ذكر كتب ابن سينا وما فيها وذكر بعد ذلك كتب ابي حيان التوحيدي،وعندي انه عليه عول في مذهب التصوف، وأخبرت ان ابا حيان الف ديوانا عظيما في هذا الفن وفي الأحياء الواهيات كثير)([57])

**خامساً : أتلاف الكتب لأسباب تتعلق بالحروب**

لقد كانت الغزوات والحروب قديمة قدم التاريخ البشري، وكانت إحدى إفرازات تلك الحروب فضلا عما تخلفه من دمار بشري، واقتصادي فأنها تستهدف البنى الثقافية، اذ غالبا ما كانت الكتب تقع في أيدي الخصم فيقوم بأتلافها.

وفي التاريخ العربي الإسلامي شواهد على ارتباط ظاهرة الحـروب بالـدمار الثقـافي وتدمير المعرفة، منها ما كان في نهاية القرن الرابع للهجـرة /العاشـر للمـيلاد، اذ سـببت الحروب الصليبية ولاسيما في بلاد الشام دمارا شمل مختلف الأنشطة الحياتية وكان مما خلفه ذلك الدمار ان احرق الصليبيون دار العلم والتي كان قد أسسها بنو عمار، الذين حكموا قـسما من ساحل بلاد الشام والذين عرفوا باهتمامهم بالكتب اذ انشأوا مكتبة ضمت كتبا جمـة بـل كانت هذه الأسرة ترسل نوابا لها إلى الأقاليم لشراء الكتب،حتى انهم كلفو نساخا بلغ عـددهم مئة وثمانين ناسخا يتناوبون العمل لغرض النسخ وتوفير الكتب ([58])، وقيل ان عدد كتب دار العلم هذه قد بلغ ثلاثة ملايين كتابا منها خمسون الف مجلد من القرأن، الا انها احرقت من قبل الصليبيين حين غزوا طرابلس سنة 399هـ/ 1009م، بعد ان اعتقد الجند انها كلهـا كانـت مصاحف للقرأن الكريم ([59]).

اما في بغداد، ففي منتصف القرن الخامس الهجرة/الحادي عشر للميلاد يذكر انه وقـع حريق بالكرخ بعد ان هاجم البساسيري بغداد مستغلا ضعف الخلافة العباسية ([60])،الا ان قدوم طغرلبك السلجوقي إلى بغداد عجلت في هروب البساسيري منها بعد ان خلف دمـارا وقـتلا فيها، فكان فيما احترق دار العلم سنة 451هـ/1060م والتي كانت قد خـصص لهـا مائـة وإحدى وثمانين دارا بين السورين لسعة كتبها وجعلت في بناء واحد سميت دار العلم وحمـل إليها من الدفاتر ما اشتمل على سائر العلوم والآداب وأوقف عليها دار الغزل ورتب فيها قوما وخزانا، ولم يتعرض إليها احد الى ان ولي الوزارة بنو عبد الرحيم، فأخذوا من احاسنها شيئا كثيرا وذكر انه كان فيها عشرة الاف مجلدة من أصناف العلوم، وكان فيهـا مائـة مـصحف بخطوط بني مقلة الى ان وقع الحرق في اغلبها بعد ان اخذ عميـد الملـك الكنـدري خيـرة كتبها([61])، ونهب البعض الاخر، واحترق الباقي بعد خروج البساسيري، وهناك من يـرى ان حرقها تم بعد دخول طغرلبك بغداد سنة 447هـ/1055م([62]).

اما القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي فقد شهد كارثة غزوا المغول لحاضرة الخلافة العباسية بغداد، والتي أجهزت على تراثها العلمي والفكري معا، اذ يرى ابن خلدون ان ما رمي في دجلة من كتب لاتحصى اذ يصف ابن خلدون بشاعة الدمار الذي خلفه المغـول بقوله (استولوا على قصور الخلفاء وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف، ولا يحصره الـضبط والعد والقيت كتب العلم التي بخزائنهم جميعا في دجلة وكانت شيئا لايعبر عنه) ([63])، واعـاد ابن خلدون قوله في موطن اخر من تاريخه وزاد عليه (انهم رموها في دجلة)([64]). ويذكر ابن الساعي ان المغول حين غزوا بغداد سنة 656هـ/1258م) انهم بنـوا اسـطبلات الخيـول وطوالات المعالق بكتب العلماء عوضا عن اللبن ([65])، اما ابن الفوطي فيصف ذلك التخريـب والاتلاف الذي حل بالكتب في بغداد بقوله (ان الدمار اصاب كل شيء الحرث والنسل، ولـم

تسلم الكتب التي بيع النفيس منها بأرخص الاثمان لقاء خبزة او لقمة تسد جوع إنـسان)([66])، وكان الطعام ينقل من الكوفة والحلة، لصلاحه بعد ان فسد الهواء والماء في بغداد، وبعـد ان انتشرت الأوبئة والأمراض فيها لكثرة الموتى، فكان تجار واسط يبيعون الطعام لقاء مقايضتها بالكتب ([67]). وما قيل عن إتلاف كتب التراث من قبل المغول أشياء أبشع مما ذكر.

**سادساً : أتلاف الكتب لأسباب طبيعية:**

كما ضاعت ثروة معرفية اذهبت جهد العديد من المفكـرين والمبـدعين فـي تـاريخ الحضارة العربية الإسلامية لأسباب أخرى لا دخل للإنسان في إتلافها، ولاسيما تلـك التـي تتعلق اما بحريق يصيبها دون قصد او غرق المكان التي فيها فتتلف، وهذا ما أصاب مؤلفات كثيرة لا تحصى اذ ان ما تتعرض له خزائن الكتب العامة والخاصة إلـى حـوادث تـودي بالكثير منها، ومنها ما حدث لكتب عبد ا بن لهيعة في الحديث (ت:174هـ/790م) قـاض مصر والذي عرف بكثرة ضبطه للحديث النبوي الشريف فضلا عن كثرة مؤلفاته، حتى قـال سفيان الثوري فيه (عندنا الفروع وعند ابن لهيعة الأصول)([68])، وقد احترقت مؤلفاته ضـمن ما احترق من مكتبته سنة 170هـ/787م،([69])، وقد اثر حرق مؤلفاته التي مصدرها ذاكرتـه وليس رواية عن آخرين، على دقة اعادتها وقراءتها على تلامذته، والتي لم تـسعفه ذاكرتـه دائما في رواية الحديث وهذا ما اكده صاحب كتاب المجروحين ([70]) بقوله: (كـان شـيخنا صالحا ولكنه كان يدلس عن الضعفاء قبل احتراق كتبه، ثم احترقت كتبه.....وكان اصـحابنا يقولون ان سماع من سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العبادلة فسماعهم صحيح،ومن سمع منـه بعد احتراق كتبه فسماعه ليس بشيء) ([71]) وكان من الكتـابين للحـديث والجمـاعين للعلـم والرحالين([72]) الا ان اخرين كالدارمي يرون انه كانى ضعيف الحديث أصلاً قبـل احتـراق كتبه([73])، اذ يروى من ترجم له ذلك الضعف في رواياته (واما رواية المتأخرين عنـه بعـد احتراق كتبه ففيها مناكير كثيرة وذلك انه لا يبالي ما دفع إليه قراؤه سواء كان ذلك من حديثه فوجب التنكب عن رواية المتقدمين عنه قبل احتراق كتبه لما فيها من الأخبار المدلـسة عـن الضعفاء والمتروكين، ووجب ترك الاحتجاج برواية المتأخرين عنه بعد احتراق كتبه لما فيـه مما ليس في حديثه)([74]).

وكذلك ما حصل لبعض الكتب والمصنفات الأخرى والتي كانت تعادل ثـروة لا تقـدر بثمن، وهذا ما حصل مثلا مع ابي عمرو الهروي (ت:255هـ/869م) والذي كان قد اتـصل بيعقوب بن الليث الصفار (ت:265هـ/879م)، فخرج معه إلى نواحي فارس، وكان قد حمل معه كتاب الجيم -الذي سمي بهذا الاسم لانه يبدأ بحرف الجيم كما كان كتاب العين للفراهيدي يبدأ بحرف العين - وهو اعز كتاب إلى قلبه في النحو من بين مصنفاته وكـان قـد فاضـت

النهروان بالمياه فطاف معسكر يعقوب بالماء، فغرقت الكتب فيما غرق من المتاع ومن بينهـا كتاب الجيم الذي كان قد صنفه ورتبه على المعجم ابتدأ فيه بحرف الجيم ولـم يكـن يـسمح بنسخه ولم يروه على طلابه([75]).

وكذلك الحال مـع مكتبـة الفقيـه احمـد بـن محمـد ابـو روق الهزانـي المـالكي (ت:325هـ/936م) والذي كان قد احترقت مكتبته فحدث من فروع، فشكك الناس في صـدق حديثه بعد احتراق كتبه التي كان قد دققها([76])، وكذلك كان الحال مع الفضل بن الحباب بـن محمد الجمحي (ت:305هـ/917م) وهو مسند عصره في البصرة وكانت كتبه قد احترقت في حادث، الا انه وبعد احتراق كتبه لم يوثق عنه احد وهناك من تكلم فيه وضـعفه ([77]). كمـا غرقت كتب ابي بكر احمد بن جعفر القطيعي (368هـ/978م) لما غرقت القطيعـة بالمـاء ضاعت بعض كتبه([78])، كمـا غرقـت كتـب احمـد بـن محمـد بـن دوسـت البـزار (ت:407هـ/1016م) ([79])، وهكذا نجد ان العديد ممن فقد كتبه من المحدثين قد ضعف الاخذ عنهم وتقول الناس على اقوالهم لضياع نصوصه الأصلية، الا ان طلابهم أعادوا كتابة الحديث عنهم بوصفهم ثقة([80]) وكذلك فقد غرقت كتب ابي العلاء صاعد بن الحسن الربعي الموصلي (ت:417هـ/1026م) ذلك العالم بالأدب واللغة، والذي كـان قـد دخـل الأنـدلس واتـصل بالمنصور بن ابي عامر الذي اكرمه واستوزره وكان قد الف للمنصور كتاب الفصوص ثـم حدث ان ابا العلاء لما أتمه أرسله بيد غلام له وعبر به نهراً بقرطبة فزلت قدم الغلام فـسقط في النهر هو والكتاب، وعندما سمع ابو العلاء بذلك وهو جالس في قصر المنـصور حـزن كثيرا وكان احد جلساء الخليفة المنصور خصوم له ومن بينهم ابن العريف والذي كـان بينـه وبين ابي العلاء شحناء ومناظرات فأنشد ابو العريف وهو متشفيا فيه قائلاً:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص        وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور ابن ابي عامر والحاضرون، فتأثر صاعد بهذا القول وأجابه قائلاً:

عاد إلى معدنه أنما        توجد في قعر البحار الفصوص([81])

كما احترقت كتب احمد بن عثمان المعروف بـأبي فـرج البغـدادي (ت:480هـ/1087م) المحدث والاديب سنة 464هـ / 1072م في حريق الكرخ هذا ([82]) كما احترقت مكتبة الحسن بن هبة ا الحافظ بن الصيصري الدمشقي (ت:586هـ/1190م) وكان محدثا وعالما باللغة، وتنقل في طلب العلم بين اصبهان وتبريز والموصل، وقد كان صنف التصانيف وعمل معجما في اللغة في ستة عشر جزء، وصنف كتبا عديدة منها كتاب في فضائل القدس، الا انها كلهـا احترقت سنة 570هـ/1174م في حادث وقع بالكلاسة، {وهي زاوية تقع في الجانب الشمالي

من جامع دمشق اتخذت للتدريس ثم أصبحت مدرسة عمرها نور الدين محمود سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجرة ([83]).

كما احترقت خزانة الكتب في قلعة الجبل في مصر إذ وقع بها حريق فتلفت بها من الكتب الشيء الكثير في الفقه والحديث والتاريخ وكان اغلبها من ذخائر الملوك وما بقى منها شبه تالف فقد نهب منه وبيع الباقي بابخس الاثمان ([84])، كما ان الحريق الذي أصاب جامع اصفهان سنة 515هـ/1122م قد اتلف ثروة من الكتب اذ احترق من المصاحف في هذه الحادثة نحو خمسمائة مصحف من جملتها مصحف ذكر انه بخط أبي بن كعب([85]).

**سابعاً : تلاف الكتب لأسباب تتعلق باحتكار ما فيها من علوم :**

كما نجد أسباباً أخرى كانت تقف وراء ضياع كتب التراث ولاسيما حين يحاول البعض احتكار ما فيها من علوم لنفسه او نسب ما فيها إليه والخشية من ان تصبح بيد غيره فلا يستطيع الانفراد بعلومها، وهذا العمل نسب إلى ابي علي الحسين بن عبد ا الشهير بابن سينا (428هـ/1037م)، والذي كان من أسرة عملت في خدمة الملوك اذ عمل أبوه في خدمة الولاة في بلخ وبخارى ليتنقل في خدمة الامراء السامانيين ولاسيما ايام نوح بن منصور الساماني([86]) لقد تربى ابن سينا في بيئة علمية ونبغ مبكرا في علوم المنطق والفلسفة والأخلاق وتأثر بافكار اخوان الصفا، فقد قرأ كتاب اقليدس ثم المجسطي بعد ان احكم المنطق من خلال كتاب ايساغوجي، وانفتحت عليه أبواب العلوم مبكرا من طبيعية والطب وكان يدرس التلاميذ الذين كانوا يقصدونه يتعلمون منه المعالجات المقتبسة، ولم يكن ينام في الليل إلا قليلاً، اذ كان شغفا بالقراءة([87])، وكان ان أصيب ملك خراسان نوح بن محمد الساماني بمرض عجز الأطباء عنه فسألوا الامير الساماني إحضار ابن سينا فحضر مع الأطباء ليشاركهم في علاجه، فصار حكيم الملوك، وكان الحكماء قبل ابن سينا يترفعون عن خدمة الأمراء والسلاطين فسأل ابن سينا الامير نوح بن منصور الأذن له في دخول دار له فيها بيوت الكتب فقبل، فكان ان وجد من بينها فهرست كتب الأوائل، فطلب ابن سينا ما احتاج إليه فرأى من الكتب ما لم يقرع أسماع الناس اسمه، لفلاسفة اغريق فضلاً عن مؤلفات ابي نصر الفارابي وغيره فقرأ تلك الكتب وظفر بفوائدها وعرف مرتبة كل رجل في علمه من المتقدمين فأتفق احتراق تلك الدار واحترقت الكتب بأسرها، في وقت كان قد فرغ من تحصيل العلوم المختلفة منها وهو في الثامنة عشر من عمره كما تجمع الروايات([88])، وكان خصوم ابن سينا يرون انه هو من احرق تلك الكتب بقصد احتكار ما فيها وليضيف تلك العلوم النفائس الى نفسه، ويقطع انساب تلك الفوائد عن اربابها، ومن المرجح ان تكون هذه الرواية في سبب إحراق تلك الكتب صحيحة اذ جاءت موافقة مع أكثر من ترجم له بما فيهم من هم من غير

خصومه، اذ اعتقد اغلبهم انه من غير الممكن انه استطاع الإلمام بعلوم الأوائل في وقت مبكر من حياته على الرغم مما عرف عنه من نبوغه المبكر، اذ يروي هو عن نفسه قائلاً (فقـرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه فلما بلغت ثماني عشرة سـنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها) ([89]) كما انه في وصفه لمكتبة الامير الـساماني مـا يزيد من ترجيح رواية حرقها من قبله عندما يقول (فقرأت تلك الكتـب وظفـرت بفوائـدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه) ([90]) فضلاً عن قوله في تلك الكتب على ان فيها مالم يره من الناس احد قبله بقوله (ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط) ([91]) ففي النص ما يثبت ادعاء خصومه عليه إلى حد كبير، كما يستدل من يرى صحة حرقها من قبله، انه بعد حرقها لم يتجدد له من العلوم شيء عن ذلك ([92]).

**ثامناً : أتلافها لأسباب اجتماعية :**

ثمة عوامل أخرى كانت تقف وراء اتلاف الكتب، منها وقوعها بيد أناس لا يعلمون قدرها فيتلفونها، او لأسباب خصومات اجتماعية تحصل بين مؤلف الكتاب واهل بيته أحياناً وهذا ما حدث لأشهر علماء اللغة وهو الخليل بن احمد الفراهيدي حين غضبت معه زوجته وخاصمته اثر شراءه جارية حسناء فغارت زوجته وابنة عمه منها، وقالت (وا لاغيضنه، وان أغضته بالمال لا يبالي، ولكني اراه مكبا ليله ونهاره على هذا الكتاب - كتاب العين - وا لافجعنه به) ([93])، فأحرقته كي تغيضه كما فعل هو، فلما علم اشتد غضبه وأسفه لذلك الفعل، اذ لم يكن لديه او عند غيره منه نسخة أخرى، وقد كاد هذا الكتاب بعد حرقه ان يطوي مصنفا هاما في المكتبة العربية لا يقدر بثمن لولا ان الليث بن نصر بن سيار تلميذ الخليل كان قد اقبل علـى حفظ هذا الكتاب في حياة مؤلفه فحفظ منه النصف، فلما مات أستاذه املى النصف من حفظه وجمع علماء عصره وامرهم ان يكلموه على نمطه([94])، وقال لهم (مثلوا واجتهدوا فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس)([95]).

## نتائج البحث

وفي الختام فان البحث عن التراث العلمي الضائع للامة كان وراؤه جملة دوافع تحددت من خلال البحث بين ما هو يعود لأسباب تباين ثقافي وأخرى لأسباب اجتماعية وثالثة لدوافع ذاتية ناهيك عن تراجع مؤلفي بعضها عن أرائهم فقاموا بإتلافها فضلاً عن الحروب والغزوات والتي حصدت الكم الأكبر منها يضاف إلى ذلك دوافع أخرى كانت وراء ضياعها منهـا مـا يتعلق بعدم قناعة مؤلفي بعضها من جدواها بعد مماتهم، فضلاً عن احتكـار المعرفـة لـدى البعض والذي يجعل من الكتب ضحية الانا والانفراد بعلمها، يضاف إلـى ذلـك مـا أتلفتـه

الكوارث من حريق وغرق أصابها في مناطق مختلفة، فضلاً عن تلف عدد آخر، كان سبباً في أضعاف رواية مؤلفه له بعد تلفه حتى يصبح صاحب الكتاب ولاسيما إذا ما كـان محـدثا ان يجرح وتضعف مصداقيته ولا يؤخذ من علمه، إذ ان ضياع ذلك التراث انعكـس سـلبا فـي استكمال موضوعات وعناوين يحتاجها طالب العلم والعالم معا فضلاً عن مثقفي الأمة، وقـد وجدنا عناوين لمؤلفات لدى ابن النديم، والقفطي وابن ابي اصيبعة، وحاجي خليفـة، وطـاش كبري زادة وغيرهم من أصحاب كتب الفهارس والتراجم الا اننا لا نجد لتلك المؤلفات أثـرا مخطوطا كان او محققا في مكتباتنا، سوى ذكر اسمها في سياق ترجمة أعمال هذا المؤلف او ذاك، مما يجعل من إمكانية التواصل الثقافي في حياة أي امة منقوصاً لأسباب تتعلق بفقـدانها للأسباب المذكورة أنفاً، ولولا قدرة الامة على تهيأة نساخ بالتزامن مع تطور صناعة الورق، وهم حرفيون في أسواق خاصة بهم في كل حاضرة وبلدة في تاريخ الخلافة العباسية والـذي أسهم إيجاباً في وجود النسخ البديلة أحياناً لضاع التراث او جله.

## الهوامش:

(1) هيسل الفرد، تاريخ المكتبات، ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة، (القـاهرة، دار الثقافـة: 1980)، ص23.

(2) شهاب الدين احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب (بيـروت، دار الفكـر: 1984): 165/7.

(3) يوسف بن الزكي عبد الرحمن ابو الحجاج، تهذيب الكمال، تحقيق: بشار عواد معروف (بيـروت، مؤسسة الرسالة:1980):19/20؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب:165/7.

(4) عمر بن علي بن احمد بن الملقن، طبقات الاولياء، تحقيق: نور الـدين شـريبة (مـصر:1973)؛ ياقوت، المصدر السابق:144/2 ؛ ابن حجر، تهذيب التهيب:223/2.

(5) شهاب الدين بن ابي عبد ا ياقوت الحموي، معجم الادباء (بيروت، دار الفكـر:1980):144/1؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمـد ابـو الفضل إبراهيم (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي:1964)، ص349.

(6) ياقوت، المصدر السابق:144/2؛ شمس الدين محمد بن احمد، الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة:1993):422/7.

(7) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، صيد الخاطر ا تحقيق: السيد محمد السيد، (لقـاهرة، دار الحديث:2005)، ص29

(8) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص29.

(9) ياقوت، المصدر السابق:144/2؛خير الدين الزركلي، الاعلام قـاموس تـراجم لأشـهر الرجـال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت، دار العلم لملايين:1980):293/3.

(10) ياقوت، المصدر السابق: 144/2؛ الزركلي، المرجع السابق: 293/3.

(11) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص29.

(12) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص30.
(13) ابن الجوزي، المصدر نفسه. ص30
(14) ابن الجوزي، المصدر نفسه.
(15) المصدر نفسه، ص30.
(16) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص30؛ ياقوت، المصدر السابق: 144/2).
(17) مصطفى بن عبد ا ، حاجي خليفة، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، صححه محمد شرف الدين (بيروت، دار إحياء التراث العربي: د:ت):52/1.
(18) ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، (بيروت، دار الفكر: د.ت ): 112/3
(19) الاصفهاني، المصدر نفسه: 112/3.
(20) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بيروت، دار صادر 1358هـ):24/9.
(21) ابن لجوزي، المصدر نفسه:24/9؛ الذهبي، سير:355/19.
(22) ياقوت، المصدر السابق:230/6
(23) ياقوت، المصدر نفسه:123/5
(24) ياقوت، المصدر نفسه:135/6
(25) ياقوت، المصدر نفسه:144/2.
(26) ياقوت، المصدر نفسه:145/2.
(27) ياقوت، المصدر نفسه:145/2.
(28) ياقوت، المصدر نفسه.
(29) المصدر نفسه.
(30) المصدر نفسه.
(31) المصدر نفسه..
(32) المصدر نفسه..
(33) المصدر نفسه..
(34) المصدر نفسه..
(35) المصدر نفسه..
(36) ظهير الدين البيهقي، تتمة صوان الحكمة، تحقيق: رفيق العجـم (بيـروت، دار الكتـب العلميـة: 1993)، ص36.
(37) البيهقي، المصدر نفسه، ص36.
(38) حمودة غرابة، الاشعري، ابو الحسن (القاهرة، مطبعة الرسالة: 1953)، ص170؛ جورج قنواتي، الفلسفة وعلم الكلام والتصوف ضمن كتاب تراث الإسلام تحرير شاخت وبوزورث، ترجمة حسين مؤنس واخسان صدقي (الكويت 1988): 77/2.
(39) عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (دراسات لكبار المستشرقين الف بينها وترجمها عبد الرحمن بدوي (الكويت، وكالة المطبوعات: د.ت)،ص22؛ ديمتري كوستاس، الفكـر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة نقولا زيادة (بيروت، مركز درايسة الوحـدة العربيـة:2003)، ص205
(40) محمد عابد، الجابري، ابن رشد سيرة وفكر (بيروت، مركز دراسـات الوحـدة العربيـة:2001)، ص141.

(41) ابن الجوزي، المنتظم:39/8.

(42) ابو القاسم، صاعد بن احمد الاندلسي، طبقات الامم (القاهرة، مطبعة التقدم: د.ت)، ص47؛ نوفل محمد نوري، الباقلاني ودوره في نشر علم الكلام في المغرب والاندلس، مجلة التربية والعلم، مج 3، العدد 1، (الموصل، جامعة الموصل / كلية التربية:2006)،ص25.

(43) ابو الحسن بن اسعد الخير،القرط على الكامل، (لاهور، جامعة البنجاب:1980):3/1.

(44) نوري، نوفل محمد، المرجع السابق، ص26.

(45) سليمان بن خلف بن سعد ابو الوليد الباجي، التعديل والجرح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، تحقيق: ابو لبابة حسين (الرياض، دار اللواء:1986):99/1.

(46) الباجي، التعديل والجرح:99/1؛ ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس (ليبيا، الدار العربية للكتاب:1981):16/3.

(47) الذهبي، المصدر السابق:376/21؛؛ صلاح الدين بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: سن دريد رينغ، (بيروت، دار احياء التراث العربي:1997):158/6.

(48) الذهبي، المصدر السابق:376/21

(49) علي بن ابي الكرم ابن الاثير، الكامل في التاريخ، راجعه: محمد يوسف الدقاق (بيروت، دار الكتب العلمية:2006): 126/12؛ الذهبي، المصدر السابق:/363؛ شهاب الدين ابي العباس احمد، ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، عني به: محمد حامد الفقي (مصر:1952):211/1.

(50) ابن الاثير، المصدر السابق:363/10؛ الذهبي، المصدر السابق:383/21؛ ابن رجب الحنبلي، المصدر السابق:211/1.

(51) ابو الفداء إسماعيل بن كثير ابن كثير،البداية والنهاية:تحقيق علي شيري، (بيروت، دار احياء التراث العربي: 1988):55/13؛ ابن رجب الحنبلي، المصدر السابق:211/1

(52) ابن كثير، المصدر السابق: 55/13؛ ابن رجب الحنبلي، المصدر السابق:211/1

(53) احمد بن المقري التلمساني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: احسان عباس (بيروت، دار صادر:1997): 377/4؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: 108/7؛ عبد الحي بن احمد ابن العماد الحنبلي؛ شذرات الذهب في اخبار من ذهب، (بيروت،دار الكتب العلمية: د.ت):115/4.

(54) ابن العماد الحنبلي،المصدر نفسه:115/4؛ ابن الاثير، المصدر السابق417/10؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: 108/7؛ محمد عابد، الجابري، فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية:1999)، ص27.

(55) الذهبي، المصدر السابق:240/19

(56) الذهبي،المصدر نفسه:241/19

(57) الذهبي، المصدر نفسه.:241/19

(58) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها (بيروت، دار الرسالة: 1986)، ص84.

(59) حمادة، المرجع نفسه، ص84.

(60) ابن الجوزي، المنتظم: 18/5.

(61) المصدر نفسه: 18/5.

(62) المصدر نفسه: 19/5.

(63) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، (بيـروت، دار إحيـاء التـراث العربـي): 537/3.

(64) ابن خلدون، المصدر نفسه: 543/5.

(65) ابن الساعي، مختصر اخبار الخلفاء، (مصر، مطبعة بولاق: 1309هـ)، ص127.

(66) كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق بن احمد، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، (بيروت، دار الكتب العلمية: 2002) ص237.

(67) ابن الفوطي، المصدر نفسه، ص237.

(68) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر عن قضاة مصر، (بيروت، دار الفكر:1984)، ص81.

(69) ابن حبان، المصدر نفسه.

(70) ابن حبان، نفسه.

(71) ابن حبان، نفسه.

(72) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق: 5/ 329

(73) ابن حجر، المصدر نفسه.

(74) ابن حبان،المصدر السابق: 13/2

(75) ياقوت الحموي، المصدر السابق: 262/4

(76) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، (بيروت، منشورات مؤسسة الاعلمي: 1971):106/1

(77) المصدر نفسه:293/2

(78) احمد بن علي ابو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت، دار الكتب العلميـة: د.ت):73/4؛ ابن الجوزي، المنتظم: 93/7.

(79) ابن الجوزي، المصدر نفسه: 84/7.

(80) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: 106/1.

(81) ياقوت، المصدر السابق: 266/4)

(82) ابن الجوزي، المنتظم: 274/8؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمـر عبد السلام تدمري (بيروت، دار الكتاب العربي:2002): 248/7.

(83) الصفدي، الوافي بالوفيات: 219/4؛ ابن كثير، المصدر السابق: 327/13 عبد القادر بن محمـد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيـق: إبـراهيم شـمس الـدين (بيـروت، دار الكتـب العلمية:1410هـ)،340ص.

(84) ابن كثير، المصدر السابق: 328/13.

(85) ابن الجوزي، المنتظم: 88/5.

(86) البيهقي، تتمة صوان الحكمة: ص9.

(87) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص403؛ البيهقي، المصدر الـسابق، ص90 ؛ أبـي العبـاس شمس الدين احمد بن محمد، ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمـان، تحقيـق: احـسان عباس (بيروت، دار صادر:1994): 158/2.

(88) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص3؛ البيهقي، المصدر السابق، ص90؛ ابن خلكان، المـصدر السابق: 158/2.

(89) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص403.

(90) ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص403.

(91) البيهقي، المصدر السابق، ص90؛ ابن خلكان، المصدر السابق: 158/2؛ ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص403.

(92) البيهقي، المصدر السابق، ص90؛ ابن خلكان، المصدر السابق: 158/2.

(93) السيوطي، المصدر السابق، ص245.

(94) السيوطي، المصدر نفسه، ص245.

(95) السيوطي، نفسه، ص245.